دور المسعودي في تطور الفكر الجغرافي العربي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد

د.عبدالجبار حامد احمد(*)

المقدمة

يعد المسعودي أحد أعلام العرب المسلمين الذين ظهروا (في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد) في مجال الجغرافية والتاريخ، وقد جاءت شهرته من خلال تصانيفه العديدة، ومن خلال رحلاته ومشاهداته الكثيرة، ومن اجل إبراز مكانته في حقل الجغرافية، كان لابد من دراسة جهوده في تطور الفكر الجغرافي العربي.

واستنادا إلى ذلك فقد تناول البحث عدداً من الفقرات عكست ما نهض به المسعودي في مجال الجغرافية والرحلات، وقبل ذلك كان لابد من إعطاء لمحة بسيطة عن حياته ونشأته وثقافته ومذهبه، ثم تناول البحث المصادر التي استقى منها معلوماته الجغرافية، ومنهجيته في علم الجغرافية، وكذلك رحلاته ومشاهداته وأهميتها، وأخيرا ما ورد في كتبه من معلومات جغرافية ثم الخاتمة.

جدير بالذكر انه كان جُلَّ اهتمام الباحث هو الاعتماد على مؤلفات المسعودي نفسه في هذا البحث، فضلا عما أورده المؤرخون القدامى عنه، أمثال الحموي في (معجم الأدباء)، فاكتبي في (فوات الوفيات) والسبكي في (طبقات الشافعية)، وما جاء به المؤرخون المحدثون أمثال: جواد علي في بحثه الموسوم بـ (موارد تاريخ المسعودي) والخربوطي في

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل.

كتابه (المسعودي) وعبدالرحمن العزاوي في كتابه (المسعودي مؤرخا) وغيرهم.

وأخيرا أرجو ان يكون هذا البحث المتواضع قد اسهم في إبراز جانب مهم من الجوانب التي نهض بها المسعودي، والله الموفق.

حياته

هو أبو الحسين علي بن الحسين بن علي بن عبدالله بن مسعود، ولذلك يقال له المسعودي نسبة إلى جده الأكبر عبدالله بن مسعود، ويكنى أيضا بـ أبي الحسن[1]، فهو بذلك ينتسب إلى أصول عربية.

ولم تذكر المصادر شيئا عن مولده، لكن الخربوطي جعل مولده حوالي سنة (287هـ / 900م)[2]، ولم يذكر من أين استقى معلوماته هذه. وهذا التاريخ يشير إلى ان المسعودي نشأ في أواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله (ت 289 هـ / 902م) وهي فترة هدوء واستقرار ورخاء، وقد تحدث المسعودي نفسه عن هذه الفترة فقال: ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، ورخصت الأسعار. وهذا الهرج، وسالمه كل

(1) المسعودي، التنبيه والاشراف، مكتبة خياط، (بيروت: 1965)، ص2. وانظر: ابن النديم، الفهرست. مكتبة الخياط، (بيروت: 1964)، ص154. الحموي، ياقوت، معجم الأباء، دار المستشرق، (بيروت د / ت). 13 / 91. الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: 1974). 3 / 13. السبكي، طبقات الشافعية، تحقيق: محمد محمود الطناحي وعبدالفتاح محمد الحنو، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (القاهرة: د / ت)، 3 / 456. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت: د / ت)، 2 / 371.

(2) المسعودي، دار المعارف (مصر: 1968)، ص 22.

مخالف، وكان مظفرا قد دانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب...[3]، وهذا الوضع قد اثر في حياته حيث كانت بغداد حينئذ مركزا من مراكز العلم الكبرى في العالم بما فيها من معارف وعلوم ومكتبات فضلا عن انها كانت مركز جذب للعلماء من مختلف الأقطار، مما حدا به ان يحيط بمختلف العلوم وان يتلقى قسطا وافرا من العلم والمعرفة[4].

جدير بالذكر ان المسعودي هو بغدادي الأصل وليس من آهل المغرب كما ذكر ابن النديم[5]، يؤيد ذلك ما قاله المسعودي عن نفسه معرض حديثه عن فضائل الإقليم، فقال وهو يصف إقليم بابل: (واوسط الأقاليم، الإقليم الذي ولدنا به... إذ كان وطننا ومسقطنا، وهو إقليم بابل....)[6]، كما يؤيد ذلك كل من الحمي[7]، والسبكي[8].

ويعد المسعودي من أصحاب الثقافة المتنوعة، فهو لم يهتم بالتاريخ والجغرافية فحسب، بل عني كذلك بعلم الكلام والأخلاق والسياسة وعلوم اللغة، فهو لم يدرس هذه العلوم كهواية بل درسها بتعمق وتدقيق[9]، وقد وصفه الكتبي بأنه:

---

(3) مروج الذهب، دار الأندلس للطباعة والنشر. (بيروت: 1966)، 4 / 143.

(4) الخربوطي، علي حسني، مروج الذهب المسعودي، (بحث منشور في تراث الإنسانية، الدار المصرية للتأليف والترجمة)، 4/254. حميدة، عبدالرحمن، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، (دمشق: 1969)، ص 238. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهر: 1963)، 1/ 177.

(5) الفهرست، ص 154.

(6) مروج الذهب، 3 / 38.

(7) معجم الأدباء، 13 / 91.

(8) طبقات الشافعية، 3 / 456.

(9) حميدة، عبدالرحمن، أعلام الجغرافيين العرب، ص239.

(كان اخباريا علاّمة صاحب غرائب وملح ونوادر....)[10]، ووصفه السبكي بأنه صاحب فتوى[11].

وتلقى علومه على كبار شيوخ عصره أمثال: أبي عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي الملقب بـ(نفطوية)، وابن زبر القاضي، كما كان يحضر مجلس الفقيه أبي العباس بن شُريح (ت 306هـ/ 918م) في بغداد، وفي البصرة تلقى علومه على أبي خليفة الجُمَحي وغيرهم[12].

كما عاصر عدداً من مشاهير المؤرخين والأدباء والجغرافيين أمثال: المؤرخ ابن جرير الطبري (ت 310هـ / 922م) والذي أثنى عليه المسعودي كثيرا[13]، والأديب قدامة ابن جعفر (ت 336هـ / 947م)، وهو الآخر لقي مدح وثناء المسعودي[14]، والجغرافي ابن حوقل (ت 350هـ / 961م)، وكذلك أبي اسحق الاصطخري (ت 350هـ / 961م)[15].

اما مذهبه فالبعض اعتبره معتزليا[16]، والبعض الآخر جعله شيعيا[17]. وارى أنه لا ينتمي إلى هذا ولا ذاك لأنه يتحدث عنهما بحيادية دون

(10) فوات الرفات، 3 / 13.

(11) طبقات الشافعية، 3 / 456.

(12) نفسه، 3 / 456.

(13) انظر: مروج الذهب، 1 /23.

(14) نفسه، 1 / 24.

(15) العزاوي، عبدالرحمن حسين، المسعودي مؤرخا، مطبعة الجامعة، (بغداد: 1982)، ص 21.

(16) السبكي، طبقات الشافعية، 3 / 456. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة: 1963)، 3/ 316.

(17) العسقلاني، لسان الميزان، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد: 1330هـ)، ص225. انظر: الخوانساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ط2، (1367)، ص372.

تحيز لأحد، ويبدو أنه كان شافعي المذهب بدليل أن أخباره نقلها السبكي في طبقات الشافعية واعتبره صاحب فتوى (456/3) كما ذكر آنفاً. وقد اختلف في وفاته، جعلها بعض المؤرخين سنة (345هـ/956م)[18]، في حين جعلها البعض الآخر (346هـ/ 957م)[19] وكانت في مصر[20]، حيث استقر هناك بعد رحلاته وأسفاره الطويلة.

آثـــــاره

صنف المسعودي عشرات الكتب في مختلف مجالات المعرفة، وقد حوت كتبه هذه أخبار رحلاته ومشاهداته وتجاربه، إلا أن اغلبها كان مصيرها الضياع، وقد ورد ذكر مصنفاته الكثيرة في كتابيه (مروج الذهب) و (التنبيه والإشراف. حيث أشير إليها في اكثر من موضع، كما وردت في كتب المؤرخين القدامى أيضا أمثال: ابن النديم في (الفهرست) والحموي في (معجم الأدباء) والكتبي في (فوات الوفيات) والسبكي في (طبقات الشافعية) وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة)، واهم ما وصل إلينا من كتبه:

1. مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف من الملوك وأهل الدرايات، وقد ذكره المسعودي في كتابه الآخر (التنبيه والإشراف)، وذكر فيه بأن (مروج الذهب) هو ثالث كتبه التي صنفها[21].

(18) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 315/3، ابن العماد الحنبلي، شذرات، 2/ 371.

(19) الحموي، معجم الأدباء، 91/3. الكتبي، فوات الوفيات، 3/ 13. العسقلاني، لسان الميزان ص 225.

(20) الحموي، معجم الأدباء، 91/13. العسقلاني، لسان الميزان، ص225.

(21) التنبيه، مقدمة المسعودي، ص2. وانظر: ص 94، 97، 144، 175. الحموي، معجم الأدباء، 13/ 93. الكتبي، فوات الوفيات، 13/3.

2. التنبيه والإشراف، وهو سابع مؤلفات المسعودي من حيث تسلسل تصنيفها الذي ورد في التنبيه[22].
3. أخبار الزمان ومن أباده الحِدثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة، وهو أول الكتب التي صنفها المسعودي وسماه بـ(الكتاب الأكبر)[23]، وقد بدأ به منذ الخليقة، وفيه وَصْفٌ للعالم وعجائبه وبحاره وجباله ومعادنه وجزره وبلدانه وينتهي به إلى سنة (324هـ / 935م)[24]، ويذكر ان هذا الكتاب كان في ثلاثين مجلدا، فقدت جميعها ما عدا المجلد الأول الذي طبع اكثر من مرة[25]. وهناك العديد من آثاره المخطوطة وكتبه المفقودة التي لا مجال لذكرها وربما يكشف المستقبل عنها[26].

المصادر التي استقى منها معلوماته الجغرافية

استقى المسعودي معلوماته من مصادر عدة في تدوين مواضيعه المختلفة التي وردت في تصانيفه، والذي يهمنا في هذا البحث، مصادر المسعودي الجغرافية فقط.

---

(22) التنبيه، ص5. وانظر: الحموي، معجم الأدباء، 13/ 93. الكتبي، فوات الوفيات، 3/ 13.

(23) التنبيه، ص2، 97، 144، 175. وانظر: مروج، 26/1، 50، 62، 405، 441، و 2/ 176، 201، 224، 330. الحموي، معجم الأدباء، 94/13. الكتبي، فوات الوفيات، 3/ 13.

(24) البنوي، خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، مطبعة فضالة، (المغرب: د/ت)، 118/1.

(25) مروج الذهب، 441/1. وانظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، 1/ 178. العزاوي، عبدالرحمن، المسعودي مؤرخا، ص 27-28. وقد طبع الكتاب تحت عنوان: (أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران).

(26) انظر عن هذه الكتب: العزاوي، عبدالرحمن، المسعودي مؤرخا، الخربوطي، (مروج الذهب للمسعودي) 4/ 255.

فقد اعتمد على مصدرين أساسين فيما يخص المواضيع الجغرافية، الأول: مشاهداته ومعايناته أثناء رحلاته الطويلة. والثاني: مجموعة من المصادر اعتمد عليها في تدوين معلوماته، وهذه المصادر على نوعين: النوع الأول: مصادر شفهية، وهم الأشخاص الذين التقى بهم واخذ عنهم المعلومات. والنوع الثاني: الكتب التي كانت بين يديه واستطاع الاطلاع عليها، وهي لمؤلفين سبقوه في ميدان الجغرافية.

فبالنسبة لمشاهداته الشخصية ومعايناته أثناء رحلاته، فإنّه دَوَن معلومات جغرافية وقف عليها بنفسه فيما يخص أخبار الأنهار والبحار، فعند حديثه عن البحار التي رآها، يقول: (وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزوم واليمن وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثره....)[27]. وفي مجال حديثه عن البحيرات والأنهار يقول: (وهذه البحيرة التي ذكرها ارسطوطاليس وغيره هي البحيرة النتنة، بحيرة أريحا.... وقد شاهدناها واليها يصب نهر الأردن الخارج من بحيرة طبرية...)[28]. ثم يحاول وصف مشاهداته في هذه البحار من عجائب وغرائب وأهوال.

وخلال رحلاته وتجواله كان يلتقي بأناس من أهل المناطق التي يحل فيها وكان يسأل من يلتقي به، ولذلك كانت مقابلاته هذه مصادر شفهية دَوَن منها معلومات جغرافية في كتبه، فمثلا عندما يتكلم عن نهر النيل في مصر يذكر انه وصلت إليه أخبار فيضانه سنة (332هـ/ 943م) عندما كان بمدينة إنطاكية من قبل

(27) نفسه 1/ 123.

(28) التنبيه، ص 73.

القادمين إلى إنطاكية[29]، وعندما يتكلم عن استخراج العنبر من البحر يقول: (... وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرها من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر ان العنبر ينبت في قعر هذا البحر....)[30].

اما الكتب التي اعتمد عليها في تدوين مواضيعه الجغرافية فهي كثيرة، فقد استقى منها معلوماته، إلا انه لم يقف عن حد الاقتباس، بل كان في بعض الأحيان يناقش وينقد ويرد على ما ورد فيها من أخبار كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ويظهر أن مِنْ بين مَنْ استعان بهم المسعودي في وصف الشعوب وسكان الأرض وأجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم كان جالينوس[31]، إلا انه لم يذكر كتابه الذي استقى منه المعلومات. كذلك اعتمد في هذا الجانب على الجاحظ فيقول: "وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتاباً في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان)[32]، كما اعتمد على ارسطوطاليس وكتابه الذي وسمه بـ (سياسة المدن)، وقد ذكر ارسطوطاليس في هذا الكتاب أمماً ومدناً يونانية كثيرة[33].

وفي مجال الحديث عن البحار والأنهار والجبال والأقاليم كان جل اعتماد المسعودي على يعقوب بن اسحق الكندي في رسالته (في البحار والمد والجزر)، وعلى تلميذ الكندي احمد بن الطيب السرخسي في رسالته

(29) مروج الذهب، 1/ 115.

(30) نفسه، 1/ 171.

(31) نفسه، 1/ 98 – 99.

(32) نفسه، 1/ 99.

(33) تنبيه، ص 78.

(في البحار والمياه والجبال) وقد أخذها السرخسي عن أستاذه الكندي. كما ذكر المسعودي كتابا آخر للسرخسي وعده من الكتب الجيدة والقيمة، وهو كتاب (المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان) وغيرها، كما اخذ عن بطليموس. وكذلك عن أبي عبدالله محمد بن احمد الجيهاني الذي صنف كتابا في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار، كما اخذ من ابن خردانبة وكتابه (المسالك والممالك)، والذي قال عنه بأنه اشهر الكتب وأعمها، وكذلك استقى معلوماته من كتاب (النواحي والآفاق والأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما في البر والبحر) لمؤلفه محمد بن احمد بن المنجم بن أبي عون[34].

وقد وجه نقده اللاذع للجاحظ ولكتابه (الأمصار وعجائب البلدان) الذي اعتبره ليس بذي فائدة، وقد جاء هذا النقد عندما ذكر الجاحظ ان نهر السند من نيل مصر مستدلا على وجود التماسيح فيه، فيقول المسعودي: (فلست ادري كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب في نهاية الغثاثة، لان الرجل لم يسلك البحار، ولا اكثر الأسفار، ولا تقرى المسالك والأمصار، وانما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين....)[35].

كما اعتمد في مجال حديثة عن مساحة الأرض وشكلها وصفاتها وخط الاستواء والمدن المسكونة منها والمواضع العامرة على كتاب (الجغرافيا) وكتاب (المجسطي) لمؤلفهما بطليموس، كذلك استقى معلوماته من ارسطوطاليس

(34) انظر: مروج الذهب، 133/1، 136، 143. التنبيه، ص51، 75، 68.

(35) مروج الذهب، 1/ 114.

في مقالته الثانية من كتابه (في الآثار العلوية) أي (علم الأرصاد الجوية)، وغيرهم من العلماء[36].

اما في مجال الحديث عن الكواكب والأفلاك والشمس والقمر ومقدار الدرجة الواحدة من الأرض فقد اعتمد على حسين المنجم صاحب كتاب (الزيج في النجوم)[37]، وعلى كتاب أبي معشر المنجم الموسوم بـ (المدخل الكبير إلى علوم النجوم)، كذلك اعتمد على كتاب بطليموس (المجسطي) وكتابه الآخر (الهيئة)، وعلى المقالة الثانية من كتاب (السماء والعالم) لارسطو طاليس، وعن تأثير الشمس والقمر استقى معلوماته من كتاب ثابت بن قرة الحراني الذي جمع فيه ما ذكره جالينوس في سائر كتبه عن تأثير الشمس والقمر[38]، إلا ان المسعودي لم يذكر اسم هذا الكتاب، وفي مجال الحديث عن الفصول الأربعة وميزاتها وخصائص كل فصل وتأثيراته، اعتمد على بطليموس في كتابيه (الأربع مقالات) و (في الأنواء) الذي ذكر فيه أحوال أيام السنة وما يطلع فيها من كواكب[39].

منهجه في الجغرافية

لقد أثرت رحلات المسعودي ومشاهداته ومعايناته على منهجه وعلى كتاباته المختلفة، فقد مزج الدراسات التاريخية بالجغرافية، وطور الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، فلم تكن رحلاته للنزهة أو التكسب،

(36) انظر: مروج الذهب، 1/103-106. التنبيه، ص25، 27، 30، 43، 45.

(37) مروج الذهب، 1/ 102.

(38) انظر: مروج الذهب، 1/ 168، التنبيه، ص 12، 13، 72، 198.

(39) التنبيه، ص 16-17.

بـل لمشـاهدة الـبلاد ومعرفـة أخبارهـا، لـذلك كـان علـى معرفـة واسـعة بالعـادات والتقاليد واللغات[40].

وهنـاك مـن اتهـم المسـعودي بـأن منهجـه فـي التبويـب لا يرقـى إلـى المستوى المطلـوب وانـه كـان مـن الصـعب عليـه تحليـل المـادة التـي جمعهـا مـن مختلـف المصـادر عـن شـعوب نائيـة، كمـا اتهـم بضـعف ملكـة النقـد والمقارنـة وانـه لا يميز بين الغث والسمين، واعتنى بالتسجيل اكثر من التحقيق، ونقل الخرافات والأخبار السطحية دون تمحيص[41].

ان مـا ذكـر عـن مـنهج المسـعودي بعيـد عـن الحقيقـة، لان مـا ورد فـي كتابيـه المطبـوعين مـن نقـد ومـن حقـائق علميـة يفنـد هـذه الاتهامـات، ثـم ان كراتشكوفسـكي نفسـه – وهـو أحـد متهمـي المسـعودي – يعتبـره مـن اكثـر الكتـاب الجغـرافيين أصـالة فـي القـرن الرابـع للهجـرة/ العاشـر للمـيلاد[42]، فضـلا عـن ذلـك فـان المسـعودي اعتمـد علـى المعاينـة والمشـاهدة لتوثيـق مـا سـمعه من أخبار[43].

(40) انظـر: روزنثـال فرانـز، علـم التـاريخ عنـد المسـلمين، ترجمـة: صـالح احمـد العلـي، مكتبـة المثنـى (بغداد: 1963)، ص151. الخربوطلي، المسعودي، ص31.

(41) انظـر: كراتشكوفسـكي، تـاريخ الأدب الجغرافـي، 1/ 183. فـوزي، حسـين، حـديث السـندباد القـديم، دار الكتـاب اللبنـاني (بيـروت: 1977)، ص89. مـال الله،علـي محسـن عيسـى، أدب الـرحلات عنـد العـرب فـي المشـرق، مطبعـة الإرشـاد، (بغـداد: 1978)، ص205، 206، 212، 213، حسـن، زكـي محمـد، الرحالـة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، (بيروت: 1981)، ص38.

(42) تاريخ الأدب الجغرافي، 177/1. وانظـر: احمـد، نفيس، جهود المسلمين في الجغرافيـة، ترجمـة: فتحـي عثمان، مطابع دار القلم (القاهرة: 1947)، ص54.

(43) العزاوي، المسعودي مؤرخا، ص 48.

اما ما قيل بصدد ذكره للخرافات والأساطير، فان المسعودي ذكرها لا لأنه يؤمن بها، بل لأنها كانت شائعة بين الناس، لذلك دوّنها لهذا الغرض(44)، ثم انه لم يكن يريد ان يسمح بضياع أي من المعلومات التي حصل عليها، فدون كل ما شاهده وسمعه، وبذلك حفظ لنا تراثا ضخما كنا سنخسره لو لم يتبع هذا المنهج، والذي يؤكد ذلك ما قاله عن نفسه في مروج الذهب: (.... ولم نترك نوعا من العلوم ولا فناً من الأخبار ولا طريفا من الآثار، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات...)(45). ثم يقول أيضا في هذا الصدد عن كتابه: (.. فلقد جمعنا ما فيه في عدّة السنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان في الأسفار وطوفان في البلدان في الشرق والغرب،....، فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة،....، وليرع لي نسبة العلم وحرمة الأدب وموجبات الرواية، وما تجشمتُ من التعب فيها، فان منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهرا منشوراً ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكا واتخذ عقدا نفيسا.....)(46).

يظهر مما سبق ان المسعودي اعتمد في تأليف كتبه على الرحلات والطواف في البلدان في الشرق والغرب من اجل ان يطّلع على الأمور بعينه لتكون اكثر دقة، وهو يصف الأخبار التي جمعها ورتبها كالجواهر المختلفة والتي يتطلب من صانعها ان يكون فنانا لينظم منها عقدا نفيسا، وانه لم يترك خبراً أو أمرا من الأمور إلا ذكره.

(44) علي، جواد، موارد تاريخ المسعودي، (مجلة سومر، م20، ج1-2، 1964)، ص22.

(45) 4/ 313.

(46) مروج الذهب، 4/ 291.

ومن هذا المنطلق فانه يؤكد على ان جمع الأخبار والوقوف عليها لا تأتي إلا بالمشاهدة والمعاينة، وهو يفتخر بذلك ويقول: وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه)[47].

ومن الأدلة على اعتماده على المشاهدة والمعاينة والنقد والتحليل كأساس لدراسته، النقد الذي وجهه للجاحظ الذي اعتبر منبع نهر السند من نيل مصر، فقال عنه: (انه كان ينقل من الكتب ولم يكثر الرحلة ليرى بعينه، لذلك جاءت أخباره مرتبكة من دون نقد وتمحيص[48]، كما وجه له نقدا آخر حين ذكر ان الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين مما حدا بالمسعودي ان ينفي هذه المسألة بعد ان تأكد بنفسه وسأل عنها[49]. كذلك يؤكد بأنه يجب على الباحث ان لا يصنف إلا في حدود اختصاصه لكي يسلم من الانتقادات والأخطاء التي قد يقع فيها، لذلك وجه نقده إلى سنان بن ثابت بن قرة الحراني حين انتحل ما ليس من صناعته – كما يدعي المسعودي – عندما ألف كتابا في أخلاق النفس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية، فيقول عنه: (إنما عيبه انه خرج عن مركز صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته، ولو

(47) نفسه، 20/1.

(48) نفسه، 1/ 114.

(49) نفسه، 1/ 194.

اقبل على علمه الذي انفرد به.. لكان قد سلم مما تكلفه)[50]. مع العلم ان سنان بن ثابت كان عارفا في الطب وماهرا فيه[51].

ولم يكتف المسعودي بالسرد التاريخي كما ذكر عنه، بل اهتم بالتحليل والبحث عن المسببات والدوافع[52] وكان هدفه الوصول إلى الحقيقة[53]، وفضلا عن هذا وذاك كان ينوه إلى العناء في طلب العلم وقلة الذين يفهمون معانيه[54]، ولا شك فانه قد اهتم بوصف المسالك والممالك في مؤلفاته، وبذلك فانه قد اتبع في منهجه هذا (المنهج الجغرافي المصفي) مدرسة الجغرافيين العرب التي ظهرت بشكل واضح في القرن الرابع للهجرة.

بقي ان نضيف ان المسعودي في منهجه وكتاباته كان لا ينتصر لأحد ولم يتحيز لقول ويمكن ملاحظة ذلك من خلال حديثه عن كتابه (مروج الذهب)، إذ قال عنه: (وليعلم من نظر فيه أني لم انتصر فيه لمذهب، ولا تحيزت إلى قول، ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم[55]، ثم انه يتميز بالتواضع في كتاباته، ففي (مروج الذهب) يعتذر إلى القارئ من أي تقصير قد وقع فيه بسبب كثرة الأسفار وقطع القفار تارة في البحر وتارة في البر

(50) نفسه، 1/ 25.

(51) ابن أبي نصيبعة، عيون الأنباء، ص301.

(52) الخربوطلي، مروج الذهب للمسعودي، 4/ 257.

(53) عبدالحميد، سعد زغلول، "ابن خلدون مؤرخا"، (مجلة عالم الفكر، م14، ع2، 1983).

(54) مروج الذهب، 19/1.

(55) نفسه، 298/4.

من اجل معرفة خواص الأقاليم والاطلاع على ما عند الأمم في الشرق والغرب[56].

رحلاته ومشاهداته وأهميتها

كان اهتمام المسعودي بالرحلات كبيراً وذلك للوقوف على الأحداث بالمشاهدة والمعاينة، وقد أكد على أهمية الرحلة، وميز بين المستقر في مكانه القانع بما يصل إليه من أخبار وبين المتجول في البلدان والفاني عمره في الأسفار من اجل الحصول على المعلومات من أماكنها مباشرة[57]، وكان يصف رحلاته بـ (الأسفار المتواترة، والحركة المتصلة، تارة مُشَرّقين وتارة مُغَرّبين، وطورا متيامنين وطورا متشاملين....)[58]، مما يشير إلى أماكنها هذه الرحلات وسعتها وانها شملت مناطق واسعة وبلدان كثيرة، ومدن زمنية طويلة.

ونتيجة لما تميز به العصر العباسي الثاني من فترة سياسية قلقة، وسيطرة العناصر المتسلطة، أراد المسعودي ان يرحل بعيدا عن هذه الاضطرابات السياسية وان يزيد من معلوماته في الأقطار المختلفة بعدان نهل العلوم من منابعها في بغداد، ولكي يطلع على حياة الشعوب وأنواع الحضارات[59]، ويدّون ما شاهده بنفسه ويقف على الحقيقة، لهذا كله رأى ان يبدأ برحلاته شرقاً وغرباً، ونظراً

(56) نفسه، / 18.

(57) نفسه/ 20/1.

(58) نفسه، 314/4.

(59) الخربوطلي، "مروج الذهب للمسعودي"، 253/4.

لكثرة رحلاته وسعتها نرى من الصعوبة بمكان أدراجها في هذا البحث، وسنقتصر على أبرزها.

زار المسعودي مدينة اصطخر سنة (303هـ/915م)[60]، ووصف ما رآه في أحد معابد المجوس من وجود كتاب كبير فيه أخبار ملوكهم، حيث وجد فيه خمسة وعشرين ملكا من ملوك الساسانيين وامرأتين، وكلهم كانت صورهم موجودة في هذا الكتاب لأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته كي لا يخفى على الحي منهم صفة الميت، ودونوا سيرة كل واحد منهم، وكان تاريخ كتاب هذا الكتاب هو النصف من جمادي الآخرة سنة (113هـ/731م)[61]. وكان في السنة نفسها (303هـ) وكذلك سنة (304هـ/916م) وقد زار الهند والمناطق التابعة لها ومنها ارض اللار الكبيرة[62] وبلاد صيمور[63]، وذكر ان فيها نحو عشرة الآلف من المسلمين ورئيسهم أبي سعيد معروف بن زكريا، كما ذكر عاداتهم وتقاليدهم وانه إذا مات ملكهم احرق عدد من الناس أنفسهم لموته[64]، ثم زار جزيرة سرنديب (سيلان)، وذكر ان من عاداتهم إذا مات ملكهم يطاف به على عربة، وتسير خلفه امرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وهي تذكّر الناس بالموت وعدم الغرور بالحياة والترغيب والتزهيد، ثم

(60) التنبيه، ص 106.

(61) نفسه، ص 106.

(62) نفسه، ص 224.

(63) مروج الذهب، 1/ 233.

(64) نفسه، 1/ 234.

يُقَطّع بعد ذلك أربع قطع ويحرق ليذر رماده في الرياح كما يفعل أهل الهند[65].

والملاحظ ان المسعودي لم يذكر تاريخ وجوده في سرنديب، ومن المحتمل ان زيارته لها كانت خلال وجوده بالهند أهمية سنة (3-4هـ) كما ذكر جواد علي[66]، ويبدو ان هذا الرأي صائب لان هذه البلاد قريبة من الهند، ذكر انه ركب البحر من جزيرة قنبلو(*)- وهي من جزر بحر الزنج (المحيط الهندي) – إلى مدينة عمان سنة (304هـ)[67]، مما يفهم انه ترك بلاد الهند وما جاورها في السنة نفسها التي كان بها، ولم يبق فترة طويلة، وبذلك كانت زيارته لمناطق الهند وما جاورها سنة (303 – 304هـ) كما ورد آنفا. اما كيفية وصوله إلى جزيرة (قنبلو) فلم يشر إلى ذلك أيضا، إلا انه من المحتمل كان قدومه إليها مع التجار عن طريق البحر قادما من الهند.

وفي سنة (309هـ/921م) كان في مدينة حلب[68]، ثم عاد بعدها إلى العراق، ففي سنة (313هـ/925م) كان في مدينة تكريت حيث التقى بالفيلسوف أبي زكريا دنحا النصراني وجرت بينه وبين المسعودي مناظرات كلامية في الثالوث والفلسفة والجدل في هذه السنة بكنيسة الخضراء في تكريت، فضلا عن مناظرته له

(65) نفسه، 99/1.

(66) "الموارد تاريخ المسعودي"، ص 4.

(*) قنبلو: وهي من جزر بحر الزنج الذي هو من بحار المحيط الهندي، وتقع مقابل الساحل الأفريقي، وهي عامرة، فيها الذهب والابنوس ويسكنها مسلمون. انظر: الانصاري، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (ليبزك: 1923)، ص162. أبو الفداء، عماد الدين، تقويم البلدان، دار الطباعة السطانية، (باريس: 1840)، ص26.

(67) مروج الذهب، 1/ 123.

(68) نفسه، 174/4.

ببغداد في السنة نفسها أيضا وفي الجانب الغربي منها[69]، وفي سنة (315هـ/927م) كان في مدينة هيت، ومنها توجه ثانية إلى بغداد[70]. ترك بعد ذلك العراق ليكمل جولاته، فكان في سنة (324هـ/935م) في مدينة طبرية بالأردن، وذكر انه في هذه السنة وفي هذه المدينة رأى كتابا عن أحد الأشخاص بنحو ثلاثمائة ورقة يتضمن معلومات عن الأمويين بدأ من خلافة عثمان بن عفان ثم معاوية بن أبي سفيان وحتى مروان بن الحكم، وكذلك ذكر فيه امويو الأندلس واحتوى الكتاب على مناقبهم وفضائلهم[71]. ونراه سنة (330هـ/941م) في مصر في زمن محمد بن طغج الاخشيدي، وذكر انه حضر في مصر في هذه السنة ليلة الغطاس (وهي مأخوذة من غطس الناس في النيل بزعمهم انه أمان من المرض ومبرئ للداء) وهي تحدث بحدود منتصف شهر كانون الثاني، ثم ذكر ان لهذه الليلة أماكنها عند أهل مصر، وان الناس لا تنام فيها وتشعل المشاعل وتحضر المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة، وهي من افضل الليالي في مصر[72].

وفي سنة (332هـ/943م) ذكر انه كان في مدينة إنطاكية في بلاد الشام، وانه قد وصلته في هذه السنة أخبار فيضان النيل بارتفاع ثمانية عشر ذراعا[73]، وبعد سنتين أهمية في سنة (334هـ/945م) نراه بمدينة دمشق[74] ثم يعود

(69) التنبيه، ص 155.

(70) نفسه، ص 383.

(71) نفسه، ص 337.

(72) مروج الذهب، 1/379-380. وانظر: 1/488.

(73) نفسه، 1/ 115.

(74) التنبيه، ص 194.

إلى مصر، فذكر انه في سنة (336هـ/947م) رأى في فسطاط مصر كتابا يحتوي على أسماء ملوك الفرنجة وسني حكمهم[75]، ويظهر انه أقام في فسطاط مصر حتى وفاته، فذكر انه كان بها في شهر رمضان من سنة (344هـ/955م)[76]، وبذلك يكون قد حط عصا الترحال فيها حتى وافته المنية.

ولا يخفى ان تلك الرحلات كانت رحلات علمية ابتغاها ليدعم بها دراساته في الجغرافية والتاريخ[77]، كما انه تفوق على الذين اعتمدوا على الروايات أو على مصادر من سبقهم دون اعتمادهم على المشاهدة كما فعل هو. كما تفوق على الرحالين الذين دونوا أخبار رحلاتهم دون ان يضعوا لها منهجا واضحا، كما انه كان اكثر دقة منهم في إيراد المعلومات[78]، فضلا عن ذلك فانه كان يشير إلى أسماء من التقى بهم، كما انه قدم وصفا لما شاهده من مدن وجبال ومناخ وعادات الشعوب وتقاليدها كما وصف الأخطار التي تعرض لها والمصاعب التي واجهها أثناء رحلاته،ولا سيما أثناء تنقلاته البحرية، كذلك وصف كل ما سمعه أو رآه من أمور غريبة[79].

ما ورد في كتبه من معلومات جغرافية

أورد المسعودي معلومات جغرافية في كتابيه (مروج الذهب) و (التنبيه والإشراف) ونحاول ان نشير إلى هذه المعلومات باختصار.

(75) مروج الذهب، 7/2.

(76) التنبيه، ص 48.

(77) أبو سعد، احمد، أدب الرحلات، ط1، منشورات دار الشرق الجديد، (بيروت: 1961)، ص 65.

(78) الخربوطلي، "مروج الذهب للمسعودي"، 4/ 254.

(79) تنظر مثلا: مروج الذهب، 99/1، 123، 171، 379. التنبيه، ص 155.

من الأمور الجغرافية التي وردت في كتبه ما ذكره عن البحار والأنهار وأعدادها وأطوالها[80]، فبدأ بذكر البحر الحبشي باعتباره اعظم البحار واجلها وما فيه من الجواهر النفيسة والعقاقير[81]، وهكذا بقية البحار، كما ذكر انها دجلة والفرات والنيل[82]، ثم تطرق إلى كيفية تكون البحار وتنازع الأقدمين من اليونان في ذلك[83]، ثم تحدث عن المد والجزر واختلاف الناس في كيفية حصوله[84]، وذكر كذلك الأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها والمعمور منها[85]، ثم تطرق إلى الأقاليم السبعة وأقسامها وحدودها وما قبل في طولها وعرضها[86]، وقد تناول بالشرح الإقليم الرابع، وهو إقليم بابل، وبيّن فضله على سائر الأقاليم وما تميّز به ساكنوه من الفضائل[87]، فهو يقول: وهذا الإقليم وسط الأقاليم السبعة وأعدلها وأفضلها، وبلد العراق وسطه، فهو شرف الأرض وصفوتها، أعدلها غذاء، واصفاه هواء...[88]، ثم يقول عنه (.... وقد كات الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد.. وبذلك اعتدلت ألوان أهله واقتدرت أجسامهم... واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار....)[89]. ثم ذكر الرياح الأربع ومهابها وتأثيراتها[90]، وتكلم عن

(80) التنبيه، ص 50.

(81) نفسه، ص 51. وانظر: مروج الذهب، 1/ 122-128.

(82) انظر: مروج الذهب، 1/ 113 – 121.

(83) نفسه، 1/ 143.

(84) نفسه، 1/ 129.

(85) التنبيه، ص 22. وانظر: مروج الذهب، 9/1.

(86) التنبيه، ص 31.

(87) نفسه، ص 34.

(88) نفسه، ص 35.

(89) مروج الذهب، 2/ 39.

فصول السنة، وميزات كل فصل ومدته وتأثيراته[91]، كذلك ذكر الأفلاك والنجوم وتأثيراتها[92]، واثر الشمس والقمر، وبيّن أماكنها القمر لأنه يدخل في حساب الشهور وأثره في المد والجزر[93]، كما قال بكروية الأرض والأدلة على ذلك، وذكر ان المسافة بين خط الاستواء وكل من القطبين تساوي تسعين درجة[94]. فهو بذلك قد تعرض للجغرافية الطبيعية والفلكية والمسالك والممالك.

ثم ينتقل إلى نمط آخر من المواضيع الجغرافية والتي يمكن ان ننسبها إلى الجغرافية البشرية والتي تختص بالسكان والعادات والتقاليد، فقد ذكر الأمم ولغاتهم ومواضع سكناهم، وما تميزت به كل أمة عن غيرها[95]. فيذكر مثلا أخبارا عن الهند وخصالها بما في ذلك عادات الهنود وتقاليدهم[96]، كذلك يصف أهل مصر وعاداتهم، وتطرق إلى الأهرامات وما فيها من عجائب مع ذكر أخبار ملوكها[97]، ثم يصف أهل السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأخبار ملوكهم[98].

(90) التنبيه، ص 17. وانظر: مروج الذهب، 2/ 220.

(91) التنبيه، ص 14.

(92) نفسه، ص 7.

(93) مروج الذهب، 2/196-199.

(94) نفسه، 2/ 200، 201.

(95) التنبيه، ص 77.

(96) مروج الذهب، 1/ 91 – 100.

(97) نفسه، 1/ 374، 379، 382، 387، 394، 404.

(98) نفسه، 1/ 422.

وفي هذا المجال أيضا يبحث في تأثير البيئة وهوائها في كل بقعة من بقاع الأرض على الإنسان والنبات والحيوان. كتأثير بيئة الترك على أجساد أهلها فصغرت أعينهم وقصرت قوائمهم[99]. كما وصف بيئة كل قطر من الأقطار وميزاتها، فنراه يصف العراق بقوله: (واما العراق فمنار الشرق، وسرة الأرض وقلبها، إليه تحادرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال. فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم... فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم.....)[100]. في حين وصف مصر بان هواءها راكد وحرها زائد فهي تكدر الألوان وتُسوّد الأبشار، اما الحجار فهو اوها حرور وليله بهور ينحف الأجسام، والمغرب يقسي القلب ويوحش الطبع[101].

نلاحظ من خلال العض السريع لما ورد في كتب المسعودي من مواضيع جغرافية، انه دخل في صميم الدراسات الجغرافية وذكر أموراً علمية تتفق والعقل والمنطق والعلم الحديث، سواء في الجغرافية الطبيعية أو الفلكية أو البشرية.

الخاتمة

من خلال دراسة المسعودي ودوره في تطور الفكر الجغرافي العربي تبين لنا ما يأتي:

1. أنه من أصحاب الثقافات المتنوعة فهو لم يهتم بالتاريخ والجغرافية فحسب بل كانت له اهتمامات بعلم الكلام والأخلاق والسياسة وعلوم اللغة وغيرها.

(99) نفسه، 172/1 و 218/2.

(100) نفسه، 2/ 36.

(101) نفسه، 35/2-36.

2. صنف عشرات الكتب في مختلف مجالات المعرفة. وكان مصير اغلبها الضياع، إلا ان ابرز ما وصل إلينا (مروج الذهب) و (التنبيه والإشراف) و (أخبار الزمان).
3. استقى معلوماته الجغرافية من مصادر عدة تأتى في مقدمتها رحلاته ومشاهداته ثم المؤلفات الجغرافية لمن سبقه من العرب والأجانب.
4. اعتمد في منهجه الجغرافي على المشاهدة والمعاينة ووصف المسالك والممالك من خلال رحلاته وأسفاره، والتي كان من نتيجتها انه مزج الدراسات الجغرافية بالتاريخية، ثم انه حاول ان يدوّن كل ما شاهده وسمعه، فضلا عن ذلك فقد اتبع المنهج التحليلي النقدي في كثير من المواضيع خلال كتاباته.
5. شملت رحلاته وأسفاره مناطق واسعة وبلداناً كثيرة، واستغرقت اكثر من ثلاثين سنة، دوّن خلالها مشاهداته وملاحظاته عن المناطق التي زارها وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم فضلا عن وصفه الأخطار التي تعرض لها أثناء رحلاته.
6. أورد معلومات جغرافية منوعة، وذكر أموراً تتفق والعلم الحديث، كذكره للفصول الأربعة والمد والجزر، والقول بكروية الأرض الذي سبق للقرآن الكريم أن أكدها في اكثر من موضع وتعرضه لأثر البيئة على الإنسان والنبات والحيوان. وبذلك يكون قد اسهم في تطور الفكر الجغرافي العربي.

Abstract

The Role of Al-Mas'udi in Developing Arabic Geographical thought in 4th Century A.H., 10th Century A.D.

Dr. Abdul Jabbar Hamid Ahmad(*)

Abu Al-Hasan Ali Ibn Al-Hussein Al-Mas'udi was born in Baghdad in (287 A.H/900 A.D). He died in Egyption (346A.H/ 957A.D). He was aprominet Islamic Arab figure (4th Century A.H./10th Century A.D.) in the fields of Geography and history. His fame was clue to his many classifications and trips. The most important of his publication are (Murooj Al-Thahab wa Ma'adin Al-Jawhar), (Al-Tanbeeh wal- Ishrāf) and (Akhbar Al-Zaman).

His trips and Journeys lasted more than 30 years and included wide regions and many countries where in he wrote his observations and nates about the regions, Their in habitants, habits and fractifions. He also brought in varied geographical information that tallies with modern science, examples of which are the globality of the earth, the tide and phenomenon. As such, he contributed to the development of Arabic geographical thought.

(*)Dept. of History - College of Arts / University of Mosul.